ATLAS

אטלס

أطلس

للدراسات الإسرائيلية

Atlas Center For Israeli Studies

تغيير هوية حزب الله ورؤيته الأساسية

صادر عن

مركز دراسات الأمن القومي

"عدكون استراتيجي"

ترجمة

مركز أطلس للدراسات الإسرائيلية

غزة - فلسطين

تغيير هوية حزب اللّه ورؤيته الأساسية

رومان ليفي

مدخل

منذ بداية تأسيس تنظيم حزب الله والسمة المركزية في تطور رؤيته الأساسية هي المعضلة المتعلقة بهوية التنظيم وأهدافه ومواصلة دربه؛ هذه المعضلة برزت بعد انتهاء حرب لبنان الأهلية أواخر الثمانينات وبعد ان خرجت إسرائيل من المنطقة الأمنية في أعقاب حرب لبنان الثانية، وفي أعقاب الصراعات الدموية في لبنان واتفاق الدوحة في العام 2008، وفي ظل قتاله إلى جانب نظام الأسد. في مركز معضلته هذه يقف الاختيار بين توجهين متناقضين اعتبرا الميزة الأساسية في تطور التنظيم، من جهة التزامه لإيران والأسس الأيديولوجية والدينية والطائفية التي على قاعدتها بدأ التنظيم طريقه، والتي على ضوئها اختار المقاومة العنيدة ضد إسرائيل، ومن الجهة الأخرى الرغبة المتزايدة في العقد الأخير بالدخول إلى العمق وتوجيه الموارد لصالح إمساك التنظيم بزمام أمور الدولة عن طريق السياسة والاقتصاد والرغبة في الحصول على الشرعية الواسعة في الدولة الممزقة ومع تعزيز القوة العسكرية السريع. التوجه الأول مرفق بالتطرف ويسمح بالتدهور نحو حرب أهلية في لبنان، بينما التوجه الثاني يستلزم الاعتدال من خلال القبول بقواعد اللعب السائدة في الدولة، حسم التنظيم لهذه المعضلة هو ما يصمم رؤية التنظيم الأساسية في مختلف القطاعات، وهو الكفيل بتغيير استراتيجية التنظيم في المستقبل، وربما كان هذا الحسم هو ما ستكون عليه جولة القتال القادمة مع إسرائيل ومتى ستقع.

تتبع أثر تطور حزب الله يشير إلى التطور في الهوية وفق الترتيب التالي: بداية برزت الهوية غير الحكومية، ومعها الهوية فوق الحكومية التي تعكس رؤى أيديولوجية ودينية أوسع من مستوى الدولة ونشاطات خارج المنطقة المحددة، وفيما بعد برزت هوية ما دون الدولة، التي تعكس أعمالًا قطاعية مقلصة أكثر من مستوى الدولة، اليوم تبرز نشاطات حزب الله وفق خصائص حكومية، من خلال هذه الديناميكا ينعكس مجهود التنظيم في استيعاب السياسة اللبنانية من خلال إجراء الحوار والاستعداد لإيجاد الحلول مع مختلف القوى في لبنان، وفي الواقع فمبادئه الناقدة التي على أساسها قام التنظيم مرت بتحول ومواءمة بما يتوافق وتغير الرؤية الأساسية للتنظيم، بالإضافة إلى ذلك يمكن ملاحظة ان نشاطات التنظيم تميزت بالاستجابة المتنامية لتهديد حصانته الفيزيائية "المادية" وعلى مواصلة تعزيز قوة التنظيم داخل لبنان.

هكذا يمكن تفسير سياسة الكبح النسبي تجاه العمليات الإسرائيلية بخشية الانجرار إلى عملية تصعيد متهورة والتفكير المتزايد بالساحة الدولية وتوثيق الاتصالات والتفاهمات الأمنية والاستراتيجية بين حزب الله وروسيا على الأرض السورية، هذا أيضًا من شأنه ان يكون تفسيرًا لرغبة حزب الله في ان يستثمر الموارد الكثيرة لردع إسرائيل وقت انشغاله في القتال المكثف في سوريا. الحركية والمرونة الأيديولوجية الملاحظة في عملية تطور التنظيم من شأنها ان تقدم حربه ضد الجهاد السني على انه مكمل، بل وربما كبديل أيديولوجي لـ "المقاومة" طويلة الأمد ضد إسرائيل من حيث رغبة التنظيم بأن يبرر وجوده ورؤيته الحالية المقدمة للعالم كـ "مدافع عن الشعب اللبناني".

هذا التطور أعرب عنه باتخاذ القرارات وفق ترتيب سلم أولويات واضح وقاطع تقرره قوة منظومة قواعد مدروسة؛ أبرزها الاستقرار والسيطرة على الساحة اللبنانية الداخلية، وفي المقابل الدفاع في وجه التهديدات الملموسة القادمة من الأرض السورية، وبعدها فقط المواجهة الأيديولوجية في أساسها مع إسرائيل.

ديناميكية الساحة اللبنانية

على الأرض اللبنانية يعيش حوالي 4 مليون مواطن، موزعين بين 18 طائفة مختلفة من الناحية الدينية والعرقية، وذلك يعتبر الأساس لصراع القوى والانقسام العميق الذي ميّز المجتمع اللبناني في جميع طبقات الحياة؛ هذه الخلفية مهمة لفهم الطريق الطويل الذي قطعته الطائفة الشيعية في لبنان كأقلية تحكمها أغلبية سنية ونصرانية ذات توجه غربي، أقلية عانت من عدم الاعتراف والقمع، وهذا هو الأساس لإقامة حزب الله وتصميم رؤاه واتخاذ قراراته على مدار السنوات.

رؤى حزب الله صمت أيضًا عقب الواقع الصعب الذي نشأ في لبنان وقت الحرب الأهلية التي اندلعت في البلد الممزق العام 1975، في هذه الحرب فقد مئات آلاف اللبنانيين حياتهم ومئات الآلاف غيرهم أصبحوا لاجئين، الاتفاق الذي وقع بمدينة الطائف في العربية السعودية سنة 1989 أدى إلى انتهاء القتال، وأشار إلى بداية مسيرة طويلة ومتواصلة من الإعمار والبناء المتجدد للبنان. التخوف من العودة إلى حرب داخلية في لبنان هو بمثابة تهديد يراود مجمل المجموعات الدينية والأحزاب في هذه البلد، ومن بين هؤلاء الطائفة الشيعية وحزب الله من حينها وإلى يومنا هذا، وعليه وفي العام 1992 تحول حزب الله بدعم من إيران إلى تنظيم سياسي بدأ يمثل الشيعة بطريقة شرعية كحزب برلماني وفي السلطات المحلية.

خلال التسعينات صعد التنظيم من عملياته ضد إسرائيل من خلال إطلاق الصواريخ على البلدات الإسرائيلية، وبشكل خاص من مركز القرى المزدحمة بالسكان، في تلك السنوات لم يلحظ ان حزب الله غيّر أنماط عملياته العسكرية في أعقاب الضرر الجانبي الذي لحق بسكان الجنوب اللبناني، أي ان الإضرار بنسيج الحياة في جنوب لبنان كان مهملًا نسبيًا أمام الهدف المركزي لحزب الله في تلك الفترة (العمل العسكري). خروج إسرائيل من لبنان عام 2000 نظر إليه العالم العربي على انه نجاح لمفهوم المقاومة، وكانت تلك سنوات التنظيم الجميلة، وفي نظر الكثير من المسلمين اعتبر هذا النجاح وبشكل لاهوتي دلالة على صوابية الايمان بالله.

رغم ذلك، ومن الناحية الجيوسياسية، جرت في المنطقة تغيرات مهمة أثرت إلى حد كبير على استمرار ازدهار حزب الله من ذلك الحين وإلى حين كتابة هذه السطور، ذلك كله رغم استمرار تعزيز قوة التنظيم بعد العام 2000 من الناحية السياسية والعسكرية، انطلاقًا من هذه النقطة واجهت استراتيجية حزب الله اخفاقات جوهرية، وسيما في كل ما يخص ما يدور في لبنان، وهكذا أخذت تتشكل فجوة بين الرؤية الأساسية التي تمسك بها حزب الله وبين موازين القوى المتغيرة والتطورات الجيوسياسية في لبنان والمنطقة.

موت الرئيس حافظ الأسد في يونيو 2000 وقرار ابنه الدراماتيكي بشار الأسد بإخراج قواته من لبنان في الـ 2005 أديا - من بين ما أديا إليه - إلى قلقلة "الترتيب السوري" في لبنان وتعزيز قوة معسكر المعارضين لسوريا وحزب الله في لبنان؛ ولذلك وجد التنظيم نفسه في مواجهة واقع جديد مثل قاعدة أقل أريحية للحفاظ على قوته، واضطرته إلى الدخول إلى الفراغ الذي تخلق في لبنان.

خروج سوريا من لبنان أوجد صراعًا متواصلًا بين الجهات المعتدلة والموالية للغرب في لبنان وبين حزب الله ومؤيدي النظام السوري، في إطار هذا التوتر اغتيل في العام 2005 رئيس الحكومة السابق رفيق الحريري، هذا الاغتيال أدى إلى موجة من الاحتجاجات الشعبية الاستثنائية في لبنان، طالب المتظاهرون بنظام لبناني جديد، ليبرالي ديمقراطي وأكثر انفتاحًا كما كان قل اندلاع الحرب الأهلية في العام 1975، هذه الأحداث أشارت إلى بداية توجه مقلق بالنسبة لحزب الله تميز بالضغوطات والمطالبات بالتغيير من قبل الجمهور الواسع في لبنان.

حلقة أخرى في سلسلة الأحداث كانت حرب لبنان الثانية التي اندلعت من دون تخطيط مسبق في أعقاب التقدير الخاطئ لحزب الله فيما يخص شكل رد إسرائيل المحتمل على اختطاف الجنود من خط الحدود، بالنسبة لحزب الله كانت الحرب نجاحًا عمليًا، ولكن من الناحية الاستراتيجية أدت الحرب إلى ذروة تدهور العلاقات المعقدة بين الدولة اللبنانية وحزب الله، وإلى تهديد ملموس بحرب أهلية أخرى في الدولة.

ذروة الصراع كانت في العام 2008 عندما اندلعت المواجهات العنيفة بين حزب الله وبين الجيش اللبناني والأحزاب النصرانية والدرزية، في الظاهر وبانتهاء 18 شهرًا من الصراع خرج حزب الله ويده هي العليا وأدى إلى تفكيك الميليشيات المتخاصمة وإخضاع الحكومة لإملاءاته كما تقرر في اتفاق الدوحة، وهكذا قدم الاتفاق إلى حزب الله وحلفائه السياسيين الحق بفرض الفيتو على مجلس الوزراء. من جانب وبالنظرة الموسعة اتضح ان "نصر" حزب الله على معارضيه على الساحة اللبنانية عاملًا زاد الضغط الكبير في الأساس على التنظيم، معارضو حزب الله زعموا ان أحداث العام 2008 أثبتت ان التنظيم يستطيع ان يوجه سلاحه إلى الداخل على خلاف الصورة التي حاول أن يقدمها على مدار السنين كـ "مدافع عن لبنان في وجه التهديدات الخارجية فقط"، هذه الانتقادات الجماهيرية عبّر عنها في انتخابات العام 2009 التي أضرت بقوة حزب الله السياسية.

تدخل حزب الله المعمق فيما يجري في سوريا بدءًا من العام 2011 يقدم هو الآخر شهادة على تغير التوجه الذي بدأ في العام 2005، فمن ناحية هذا التدخل في سوريا مرتبط بالأساس الأيديولوجي الأبعد والأعمق لحزب الله وإلى شراكته مع حلفاء على أساس أيديولوجي وديني وطائفي، والذي يشمل أخلاقًا وقيمًا مشتركة، ومن الجهة الأخرى تدخل حزب الله في سوريا تفسرها المصالح المادية وتلبية الاحتياجات الوظيفية النابعة من الحفاظ على التحالف الاستراتيجي مع شركاء الدرب لمواجهة تهديد التنظيمات السنية الجهادية الراديكالية على لبنان. في عملية تزداد حدتها شرعت المعارك من أجل الوصول إلى حدود لبنان الشرقية، ذلك ان حزب الله الذي كان ملتزمًا بالعمل على الأرض السورية سيطلب منه فجأة مواجهة هذه التهديدات على الأرض اللبنانية.

العمليات في سوريا أضافت إلى القلقلة المتكررة في موقف حزب الله داخل لبنان وإلى الإضرار بحرية تحرك التنظيم القدرة على استعراض قوته أمام خصومه، في ذات الوقت اعتبر حزب الله من منظور الكثيرين في لبنان كـ "مثير للحروب وجالب للكوارث على البلد"، هكذا أدى التدهور في موقف التنظيم في الرأي العام اللبناني إلى تفكك معسكر الـ 8 من آذار في العام 2013.

في رد على العمليات الدموية التي نفذتها تنظيمات سلفية جهادية لبنانية ضد حزب الله ومؤيديه في العام 2013 عقب تدخل التنظيم في الحرب السورية؛ بذل حزب الله الكثير من الجهود للدفاع عن ممتلكاته وعن قومه وعن القرى الشيعية، وفي المقابل وثق التعاون مع الأجهزة الأمنية في لبنان، تعاون من هذا النوع له مغازٍ سياسية، إذ ان حزب الله بالفعل مهمٌ له ان يضمن أن الهجمات ضده هجمات إرهابية ذات طابع قومي موجهة ضد الدولة اللبنانية وليس ضده فقط، وفي المقابل حاول التنظيم المحافظة على الهدوء النسبي في

المنظومة السياسية اللبنانية، ولذلك فضلت قيادة حزب الله التوصل إلى حل في موضوع تعيين رئيس الحكومة اللبنانية وتأجيل الانتخابات البرلمانية.

الأهمية التي أولاها حزب الله لوحدة لبنان في تلك الفترة أعرب عنها حسن نصر الله في خطابه بالذكرى السنوية السادسة لحرب لبنان الثانية. "اليوم يوجد توترات في لبنان لها مسبباتها، بعضها سياسي وبعضها اقتصادي وبعضها اجتماعي، لأهل لبنان ولكل الموجودين والمستمعين، وسيما أهل المقاومة؛ أدعوكم إلى أن تهدؤوا وأن تتحلوا بالصبر والأناة، التجربة تثبت أن دمنا وأبناءنا وحياتنا هم جميعًا فداء لسلامة لبنان ولكرامتها واستقرارها، إذا ضحينا ببعض كرامتنا فليست هذه مشكلة، لا تنجروا خلف كل محاولة استفزاز، هناك من يريد استفزازكم، هناك من يشجع الفوضى في لبنان وحرب الاخوة في لبنان، لسنا من هؤلاء، لذلك فأنا أدعوكم إلى الصبر، لذلك حكمنا على أنفسنا بصمت الأقوياء".

دليل على تغيير سلم أولويات التنظيم في تلك السنوات كان تقدير الكثيرين في لبنان لعدم مقدرة أو استعداد التنظيم للقيام بمقاومة إسرائيل، السبب في ذلك كان تحول المواجهة مع إسرائيل إلى الهوامش في ظل الضغط الذي مورس على حزب الله في لبنان حول تدخله في سوريا، ذلك بالإضافة إلى الوعي الكبير في العالم العربي بقلقلة الاستقرار، والذي ألزم حزب الله أيضًا بتركيز جميع اهتمامه على السياسة الداخلية.

في خطاب نصر الله بذكرى العام الثامن لحرب لبنان الثانية؛ برز تعاطي الأمين العام للتنظيم مع موضوعين مركزيين؛ الأول أشار في أقواله الافتتاحية إلى طريقة عمل التنظيم في لبنان، طريق السياسة اللبنانية وطريق محاولة تسوية الخلافات بين الأحزاب المختلفة في لبنان. "الحكومة هي حكومة ائتلافية، فيها تجمعات ومعتقدات وآراء وتوافقات وخلافات، ولكن في نهاية المطاف علينا ان نسوي خلافاتنا ونحل مشكلاتنا بالحوار والنقاش، نحن في حزب الله ملتزمون وسنبقى ملتزمين بأن أي خلاف مع أي مكون في الحكومة وأي خلاف مع أي أحد من حلفائنا لن نخرجه على الملأ ولن ننتقد، وإنما نفضل إجراء الحوار، نؤكد انه تحالف استراتيجي".

التناول الثاني لأمين عام حزب الله كان الحديث عن التهديد الجديد على لبنان عبر التوجه إلى وحدة لبنان. "أيها الاخوة والأخوات، أدعو اللبنانيين وجميع شعوب المنطقة، وبغض النظر عن كل ما جري في السنوات الثلاثة الأخيرة، ورغم الخلافات المثارة حوله، فلنضع ذلك كله جانبًا لأن ذلك كله ليس مجديًا الآن، لماذا؟ لأن هناك خطرًا حقيقيًا على وجودكم ودولكم ومنازلكم، وبناءً عليه ليس هذا وقت الانتقادات، تريدون الانتقادات لا بأس افعلوا ذلك فيما بعد، أما الآن فجميع شعوب المنطقة تواجه خطرًا كبيرًا وجديدًا وحقيقيًا، هذا الشيء المسمى (داعش)، أعمال الذبح التي نفذت هي أولًا وقبل كل شيء ضد السنة؛

ولذلك فإن ما نريده هو ألا يقدم أحد هذه المعركة كمعركة طائفية، أدعو كل لبناني إلى ترك التعصب القبلي جانبًا".

يمكن ملاحظة ان الجمع بين ضعف لبنان وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه في وجه التهديدات الخارجية، كما برز الوضع في الهجمات السنية الجهادية المتزايدة بدءًا من العام 2014؛ عزز العلاقة بين حزب الله والدولة اللبنانية، هذا الوضع قرّب الرأي العام في لبنان من التنظيم، والذي اعتبر الجهة المركزية التي تستطيع منع الفوضى من العودة إلى لبنان. دليل مركزي على نسج هذه العلاقة نجده في القرار الدراماتيكي الذي اتخذته العربية السعودية الداعم التقليدي للبنان بوقف المساعدات ذات الأهمية الكبيرة للدولة في أعقاب عمليات حزب الله.

حزب الله على الساحة الدولية

في السنوات العشرين الأولى من تطوير التنظيم، برزت نشاطاته وفق خصائص غير حكومية أو فوق حكومية، ومن دون التزام من أي نوع بالاتفاقيات الدولية، ومن دون تأثير واضح للمجتمع الدولي على تطور التنظيم. في الواقع قرارات مجلس الأمن رقم 1559 و1701 اضطرت حزب الله إلى أن يواجه للمرة الأولى من خلال الساحة السياسية اللبنانية الداخلية الدعوة إلى نزع سلاحه وفرض الحظر على التنظيم، أُضيف إلى ذلك ملحمة ذات تأثير كبير على حزب الله؛ إقامة المحكمة الخاصة التابعة للأمم المتحدة الخاصة بالشؤون اللبنانية، والتي أعدت للتحقيق في مقتل رفيق الحريري عام 2005، إقامة المحكمة وتدخل المجتمع الدولي في التحقيق في القتل شكلا قضية مختلفة في الخلاف ومركزًا للمواجهة السياسية، حيث ان المعسكر الموالي لسوريا بقيادة حزب الله رفض إقامة المحكمة بشكل قاطع، بزعم ان التحقيق الدولي يستخدم كأداة للمهزلة السياسية التي يراد منها إضعاف سوريا وحلفائها في لبنان، هذه هي خلفية انسحاب ممثلي حزب الله وإسقاط الحكومة اللبنانية في نوفمبر 2006؛ خطوة قادت إلى شل المنظومة السياسية لوقت طويل.

بعد إقامة المحكمة في العام 2009 استمرت المواجهات السياسية حول التحقيق بمقتل الحريري في عكس الفجوات السياسية الداخلية العميقة والموسعة أكثر من قضية القتل نفسها، على هذه الخلفية استقال للمرة الثانية ممثلو حزب الله من الحكومة اللبنانية وتسببوا بسقوطها في العام 2011؛ هذه الخطوة أدت إلى التقارب بين الدروز والشيعة، وبذلك أصبح من الممكن إقامة حكومة أكثر أريحية بالنسبة لحزب الله.

وعلى خلاف قراري مجلس الأمن 1559 و1701، اللذين واجههما حزب الله بطريقة موضعية وبفترة زمنية محدودة نسبيًا؛ عملية إقامة المحكمة الدولية الطويلة وإدارة المحكمة خلفت بصماتها على المنظومة السياسية في لبنان من العام 2005 وحتى يومنا هذا، وألزمت حزب الله بتوجيه الموارد والمجهودات الكثيرة إلى تقليص التسلل الدولي المستمر والمرهق إلى منطقة نفوذ التنظيم في لبنان، وبالتالي تقلصت مساحة مناورة وتحكم حزب الله على المسرح السياسي، وهكذا تقلصت قدرته على تخطيط خطواته في المنظومة السياسية، وهي المهمة غير البسيطة بحد ذاتها.

هذه الخطوة عززت المعضلة التي يواجها حزب الله، حيث اضطر للاختيار بين المعارضة غير المتهاودة لتعاون المنظومة السياسية في لبنان مع المحكمة الدولية وبين رغبته بأن ينظر إليه من قبل المجتمع الدولي كجهة شرعية في لبنان.

تهديد آخر لحزب الله على المستوى الدولي متعلق بمدى شرعية التنظيم في أعقاب اعتباره تنظيمًا إرهابيًا من قبل دول مركزية من العالم الغربي، هذا التوجه اشتدت حدته في أوروبا في أعقاب العملية التي نسبت إلى حزب الله في حافلة السياح الإسرائيليين في بلغاريا عام 2012، بهذا الصدد من المثير تتبع رد فعل حزب الله الذي حاول من جانبه ان يصد الاتهامات بشأن تورطه في العمليات الإرهابية الدولية من خلال بذل الجهد والمال السياسي ليحاول إحباط الخطوة التي سيعلن عنه فيها انه تنظيم إرهابي في الاتحاد الأوروبي، مع الحرص على تأكيد الفرق بينه وبين التنظيمات الإرهابية المختلفة مثل القاعدة، وهذا دليل آخر على التغيير الذي طرأ على رؤية حزب الله من تنظيم ذا خصائص دون الرسمية إلى تنظيم فيه المعيار الرسمي والدبلوماسية الدولية بدأت تكون محسوسة.

تدخل حزب الله العميق على الأرض السورية واستعداده لتكبد الخسائر الكبيرة أدى إلى التطور المركزي في كل ما يتعلق بموقفه على الساحة الإقليمية ومكانته في نظر المجتمع الدولي، توثيق العلاقات والتفاهمات الأمنية الاستراتيجية بين حزب الله وروسيا تشهد أكثر من أي شيء على دخول التنظيم إلى الصف الأول من القوات المؤثرة فيما يجري في المنطقة، وهكذا يصبح التنظيم شريكًا مركزيًا في اتخاذ القرارات مع حلفائه الإيرانيين والروس، وهكذا حصل على نفوذ بمستوى دولة.

تغير التوازن بين حزب الله وإيران

في مركز نشاط إيران في لبنان تطلعها لتصبح دولة مهيمنة إقليمية، في هذا السياق بنت إيران موقعها في لبنان من خلال الفوضى والتسيب في الحرب الأهلية في الثمانينات، إلى

جانب الفترات الطويلة من حينها إلى يومنا هذا، حيث تعتبر فيها المنظومة السياسية في لبنان مشلولة، نعم في الواقع اندلاع جولات العنف وبقاء حالة ضعف لبنان أسهما في السيطرة الإيرانية المستمرة على هذه المنطقة.

من العام 2011 تسببت السيناريوهات الجيوسياسية في المنطقة بتغيير التوازن ونوعية العلاقات بين اللاعبين وخلق متجهات غير متداخلة بالضرورة، الاتفاق النووي الإيراني وتلاحم حزب الله مع لبنان تقود علاقات حزب الله مع إيران صوب عهد جديد ومعقد في منظومة العلاقات الخاصة بين هذين اللاعبين؛ أولًا: رغبة إيران بالتوصل إلى اتفاق مع الغرب بشان النووي أوجب تقليص الارتباط المباشر بين حزب الله وإيران ظاهريًا على الأقل، وهكذا تقلص دعم إيران المالي لحزب الله، برز هذا التقليص بقدرة حزب الله على تخصيص الموارد لتحركاته العسكرية والمؤسسية الاجتماعية في لبنان. ثانيًا: منذ العام 2011 وفي ظل تدخل حزب الله المتزايد في سوريا، حصل التنظيم لنفسه على شهرة محلية كلاعب قوي مستعد للتشمير عن سواعده وإقحام يديه في الوحل، هكذا في الوقت الذي ينجح فيه حزب الله بالتأثير بصورة لا بأس بها على ما يدور على الأرض السورية يبدي الإيرانيون حساسية للخسائر في الأرواح وترددًا في إرسال قوات مكثفة إلى مراكز القتال في سوريا، وكذلك الحرب في سوريا تجسد اختلاف المصالح، إليك مثلًا الجهد الإيراني موزع في المناطق البعيدة عن لبنان وفي شرق سوريا وشماليها وفي العراق واليمن في الوقت الذي فيه حزب الله يعمل في مكان أقرب إلى لبنان بشكل يكاد يكون مستقلًا، أضف إلى ذلك انه كلما ارتفع عدد قتلى حزب الله في ظل الحرب في سوريا وتعمق الخوف من حرب أهلية في لبنان ارتفعت أكثر وأكثر الأصوات المتسائلة داخل الطائفة الشيعية في لبنان بخصوص "الوحدة الإسلامية" مع إيران.

لذلك طالما استمرت هذه التوجهات بالتطور مستقبلًا فقد يكتشف الإيرانيون ان استخدام حزب الله في الأهداف السياسية أكثر تعقيدًا من الماضي، حزب الله من جانبه يفهم ان العمل الاستعراضي إلى جانب إيران من شأنه ان يؤدي إلى وقوع ضرر كبير يصيب مكانته في لبنان، هذا يخلق تغييرًا في العلاقات المتداخلة التي ميزت العلاقات بين إيران وحزب الله في الماضي.

التأثير الاقتصادي على تطور حزب الله

قوة حزب الله الاقتصادية - الاجتماعية أصبحت على المحك بعد حرب لبنان الثانية، من خلال تقدير التنظيم بان الميزانية الإيرانية ليست كافية لجميع أهدافه، ومن خلال التفكير المستقبلي بخصوص إمكانية أن تتقلص هذه الميزانية؛ طور التنظيم على مر السنين

مصادر دخل مستقلة هدفها تقليص الارتباط بإيران، مصادر الدخل هذه هي من بين الكثير من المصادر الشركات الاقتصادية التي يديرها حزب الله أو يشارك فيها وتسخير الأموال في لبنان وفي أنحاء العالم من خلال المنح والتبرعات والمال الذي مصدره النشاطات الجنائية في لبنان وأنحاء العالم والمبالغ التي يجنيها حزب الله لقاء الخدمات الاجتماعية، في العراق مثلًا شرع التنظيم في الاستثمار في تطوير شركات تجارية، هذا الدخل استخدم في أهداف متعددة من بينها دفع أهدافه السياسية والسيطرة على الدولة.

تدخل حزب الله في الحرب السورية بدأ العام 2011 وقاد إلى نقطة تحول في كل ما يخص اقتصاد التنظيم؛ أولًا: إيران التي اعتبرت على مدار السنين مصدر دعم رئيسي بالنسبة لحزب الله بدأت تقلص دعمها الاقتصادي للتنظيم، ثانيًا: هذه الحرب كثيرة الأبعاد تستلزم موارد كثيرة على حساب تخصيصها لتطوير وسيطرة التنظيم في لبنان، يضاف إلى ذلك فرض الحكومة الأمريكية للعقوبات المتزايدة والعزلة الاقتصادية بحق تنظيم حزب الله. بفرض الواقع لما كبر حجم حزب الله وتقوى كان المطلوب منه أن يجري دراسة لميزانيته، سواء على المستوى المؤسسي أو على مستوى الدعم الاقتصادي والاجتماعي من خلال إلغاء تدخله في الدوائر الواسعة في الدولة اللبنانية.

ديناميكا الساحة الإسرائيلية

أفكار الجيش الإسرائيلي المستفادة من حرب لبنان الثانية بشأن تقوي وخصائص التهديد تجاه إسرائيل أدت إلى تعزيز الخطة التشغيلية الإسرائيلية وإلى بناء استجابة تنفيذية استثنائية من جانبها؛ هذا التهديد من جانب إسرائيل أدى بشكل عكسي إلى تغيير استراتيجية حزب الله، من العام 2006 يحسن التنظيم المحافظة على قواعد اللعب الواضحة بين الرادع والمردوع أمام إسرائيل، هكذا خلال عقد ضاعف حزب الله حجم مقاتليه وزاد حجم ترسانته الصاروخية والقذائفية، بالإضافة إلى إدخال منظومات متطورة مضادة للطائرات وآلاف الصواريخ المضادة للدبابات ومئات الطائرات الصغيرة من دون طيار، وعدا ذلك خطط التنظيم التنفيذية تحولت من دفاعية في أساسها إلى خطط تقوم على أساس الهجوم واحتلال أرض على الجانب الإسرائيلي من الحدود؛ هذه النطاقات تشهد على إبقاء توازن الردع أمام إسرائيل رغم جهود التنظيم على الساحة اللبنانية الداخلية والقتال على الأرض السورية.

تطور التوازن العسكري يمكننا من فهم تطور الرؤية الأساسية لحزب الله بمستوى أكثر عمقًا، يمكن القول انه ومنذ العام 2006 وبسبب السيناريوهات المهمة الثلاث التي حدثت في السنوات 2005 - 2006 (كما فصلت في الفصل الذي يتناول الساحة اللبنانية) وبسبب

التوازن العسكري الموصوف أعلاه تحولت مواجهة حزب الله مع إسرائيل لتصبح مدروسة وحذرة أكثر من أي وقت مضى، ذلك انه وبالإضافة إلى التهديد المعروف والمباشر على حزب الله أثبتت حرب لبنان الثانية استعداد إسرائيل لتدمير البنى الوطنية في لبنان وزرع الدمار الكبير وطرد السكان من جنوب لبنان باتجاه الشمال، دون قدرة حزب الله على منع هذا الضرر؛ كل ذلك أدى إلى تهديد غير مباشر ولكنه حقيقي بالنسبة لحزب الله؛ تفعيل ضغط لبناني داخلي كبير على التنظيم من خلال الرأي العام والمنظومة السياسية بخصوص شرعية عمل حزب الله في لبنان، والمعنى منذ العام 2006 حسب حزب الله الانعكاسات المحتملة لمواجهة مع إسرائيل ضمن نسيج اعتبارات موسع من خلال رؤية بعيدة الأمد.

في قواعد اللعب الجديدة التي أقرها حزب الله لنفسه يظهر الكثير من السيطرة، ذلك ان التهديد الإسرائيلي هو التهديد المسيطر عليه أكثر من بقية التهديدات التي وضع حزب الله في مواجهتها، قيادة التنظيم - وبمشاركة القيادة الإيرانية - تخلق هدوءًا على الجبهة الإسرائيلية، حيث تزداد التهديدات على التنظيم في لبنان أو في سوريا، هذا الهدوء يتحقق من خلال العمل تحت خط الرد الإسرائيلي، الخط المستقر نسبيًا، والذي يمكن توقعه مسبقًا، هذا الافتراض يتناسب وسياسة ضبط النفس النسبية كما برزت في العام 2008، حيث نسب لإسرائيل اغتيال عماد مغنية قائد الذراع العسكرية لحزب الله والجنرال السوري محمد سليمان، كذلك أيضًا اغتيال حسان اللقيس في العام 2013 في بيروت والهجوم الأخير على نشطاء حزب الله، ومن بينهم جهاد مغنية وقائد رفيع من الحرس الثوري الإيراني؛ ذلك كله بالإضافة إلى الكثير من العمليات المنسوبة لإسرائيل، ومن بينها مهاجمة ارساليات السلاح لحزب الله على الأرض السورية ولبنان. رد التنظيم تضمن استجابة حقيقية واحدة، العملية التي نفذت في يوليو 2012 في بورغوس إلى جانب محاولات فاشلة لتنفيذ عمليات أخرى خارج لبنان، وكذلك عمليات موضعية ومدروسة في منطقة خطوط الحدود بين لبنان وإسرائيل.

استنتاجات وانعكاسات

رغم تصريحات حسن نصر الله النارية المتضمنة للأيديولوجيا الأساسية الإسلامية الشيعية في الواقع؛ لوحظت في العقد الأخير ديناميكا أحداث تشهد على تعزيز تحركات حزب الله بطريقة آلية - نفعية لكي يعزز الهوية الرسمية: حزب الله مال إلى التفكير بشكل حقيقي بمستوى التهديد الموجه إليه من خلال النظر بشكل واسع إلى ما يجري في لبنان، وكذلك إلى الخلفية وإلى التاريخ الذي أدى إلى تحديد استراتيجية العمل، إضافة إلى ذلك حزب الله

أبدى قدرة على التعلم وفحص الخصم الذي يواجه وواءم تحركاته حسب ذلك بصورة تعرب عن اتخاذ القرارات حسب سلم أولويات واضح وقاطع؛ أولًا: الاستقرار والسيطرة على الساحة اللبنانية الداخلية، وفي المقابل الدفاع في وجه التهديدات الملموسة من الأرض السورية، وبعدها فقط مواجهة إسرائيل. ثانيًا: تعقب الأحداث في دوائر النفوذ المختلفة تدل على حد متزايد من السيطرة على الاستراتيجية وعمل التنظيم بأبعاد مختلفة وعلى القدرة على دراسة الخيارات بحذر. ثالثًا: بالتفكير في تشريح السيناريوهات يمكن ان نشخص التوافق بين أدوات تحقيق الأهداف من ناحية وبين تعلم كيفية تحقيقها من الناحية الأخرى، أهداف التنظيم تعكس منطقًا داخليًا وتقدم بطريقة ملتوية، وفي اختبار النتيجة أيضًا الطرق التي سلكت في الواقع كانت معقولة من منظور المخاطرة، ولقاء هذا كله نفذ التنظيم نشاطات مكثفة على الساحة السياسية بهدف ضمان دعم الأهداف والقرارات التي يحاول حزب الله ان يحققها، بالإضافة إلى محاولة استيعاب الرأي العام الواسع في لبنان.

منذ العام 2011، وفي ظل تدخل حزب الله في سوريا، حقق التنظيم لنفسه شهرة محلية كلاعب قوي يحقق أهدافه وينجح في التأثير بصورة لا بأس بها على الفوضى في سوريا، يوجد اليوم دلالات كثيرة على موقف حزب الله الجديد وعلى دخوله الصف الأول للقوى المؤثرة فيما يجري في المنطقة، هكذا وبعد ان كان في الماضي وكيلًا إيرانيًا؛ يعتبر حزب الله اليوم شريكًا مركزيًا في اتخاذ القرارات على المستوى الرسمي الإقليمي مع حلفائه الإيرانيين والروس، هذه الخطوة من شأنها ان تغير إلى الأسوأ التوازن الاستراتيجي لحزب الله أمام إسرائيل.

منذ ان أصبح حزب الله ملتزمًا بالدفاع عن لبنان أكثر من أي وقت مضى وليس فقط عن الطائفة الشيعية أو إيران كما في السابق فإن التهديد على التنظيم والخسارة المحتملة باتت كبيرة بسبب قدرة خصومه على ممارسة الضغط عليه من خلال الإضرار بالبنى التحتية ونمط الحياة في لبنان مع عدم قدرته على مواجهة هذا الإضرار.

ترجمة ونشر

مركز أطلس للدراسات الإسرائيلية

Atlas Center For Israeli Studies

Website: www.atls.ps

Email: atlas.ps@hotmail.com

Facebook.com/atlas.ps1

Tel. : 0097082834064

Mobile: 00970592826767

جميع الحقوق محفوظة

أغسطس 2016